نظرات حول اعادة كتابة تاريخنا

د. أحمد جودة

ان النكبات التي تصيب الامم في التاريخ الانساني كانت دائما حافزا وباعثا الى التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرا لكثير من دارسي التاريخ لاعادة النظر في تفسير التاريخ وتحليله لحقبه معينة او شعب معين .

وعليه فان واقعنا العربي الاليم في الربع الاخير من القرن العشرين وما اصابتنا من ويلات ونكبات منذ مطلع هذا القرن ان لم يكن منذ اواخر القرن السابق يفرض علينا هذا الواقع مجابهة جديده وصريحة لماضينا القومي وربما للتاريخ الانساني بشكل عام . مجابهة تتناسب ومطالب هذه المرحله التاريخية الهامة .

واننا لجديرون ان نبذل اقصى ما في جهدنا لنسبر اغوار هذا الواقع العربي . وسيدفعنا هذا الجهد الى ادراك افضل وادق لانفسنا وواقعنا . سواء بالنسبه لماضينا الذي يجب ان نتخذ منه قوه دفع في مسيرتنا . وكذلك مصيرنا الذي نتطلع اليه وندفع نحوه لكي نعي حقيقة هذا وذاك ونعمل ما في استطاعتنا للتحكم في خط سيرنا وبالتالي في المصير الذي نندفع صوبه بدلا من ان نكون له محكومين مسيرين .

وفي هذه الانتفاضة القومية يجب ان يكون الوعي التاريخي مصدر قوة لا مبعث هزات عابره وعاملا من عوامل الانتاج والبناء والخلق والابداع . ولكن لكي يتحقق كل هذا يجب ان يكون وعينا التاريخي وعيا متفحصا ومستنيرا .

كثير من الافراد بل ومن الشعوب ما تقع فريسة اوهام خاطئة مغلوط للتاريخ . اذ يتبادر الى الذهن مباشرة وبسرعة وبشكل غريزي بان التاريخ هو الماضي ، وعليه يظل ذلك الفرد او الشعب حبيس الماضي ورهينته .

والواقع الصحيح ان التاريخ عبارة عن جسر يربط الماضي بالحاضر وينير الطريق الى المستقبل . وهو ليس مجرد دليل على طريق المستقبل انما هو فاعل لذلك المستقبل . اي ان تصورنا لماضينا يجب ان يشكل طموحاتنا للاجيال المقبلة . كما ان معرفتنا التاريخية هذه يجب ان تكون سلاحا نتسلح به لمجابهة الاخطار التي تحدق بنا ولشق طريقنا في الحياة لتحقيق حياة افضل ومستقبل زاهر .

نخلص من هذا الى ان التاريخ صانع للشعوب ، ولكن لهذه الشعوب في الوقت نفسه الاهمية نفسها في كونها باعثا وملهما مستمرا . اذ يشعر كل مواطن بشرف المشاركة في تاريخه وتاريخ أجداده وأسلافه .

الانسان تاريخي بجوهره ، وكل انسان مرتبط بماضيه . فلا انسان بلا تاريخ ، ولا تاريخ بلا انسان . فهو ينشىء الحياة ويصنع التاريخ .

واذا اتفقنا على هذا الارتباط بين الانسان والماضي (التاريخ) فيجب ان نسعى لادراك الماضي ونستجلي حقيقته ونتخذ موقفا سليما منه ، ونربطه ربط فعل وانتاج بالحاضر الذي نعاني مشكلاته وبالمستقبل الذي نعمل على تشييده .

ان فكرة اعادة كتابة تاريخ الامه العربية ليست جديدة فريدا وخاصا بالعرب ، فكثير من الامم والشعوب قامت به عبر العصور ، فالمانيا النازيه وايطاليا الفاشية وكذلك الاتحاد السوفياتي ، كلها قامت باعادة كتابة ليس تاريخ بلادها فحسب بل تاريخ غيرها من الشعوب ايضا .

ومع أن التاريخ المكتوب بروح علمية وموضوعية رفيعة يحمل بين طياته عناصر الاستمرار وربما الديمومة، الا ان هناك شعورا لدى كل جيل برغبته في اعادة كتابة التاريخ . فالمنظار الذي ننظر من خلاله الى الماضي يجب أن يعدل أو يعاد تعديله من جيل الى آخر ، لان ما تراءى صحيحا وحكمة لاجدادنا كثيرا ما يظهر غير ذلك لنا ، وما كان كئيبا محزنا لجيل معين يظهر ساذجا مبتذلا للجيل التالي .

لكن يجب ان يظل ماثلا امامنا انه ليس من شأن المؤرخ أن ينظر الى الماضي من خلال معايير الحاضر ، لان الانسانية ليست شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا — فلكل عصر ولكل امة طابع فريد لا يتكرر .

واذا اتفقنا مع ما يقوله المؤرخ الايطالي المشهور كروتشه بان « كل تاريخ هو تاريخ معاصر » وان التواريخ ما هي الا « وجهة نظر » لكاتبها ، نخلص الى ان اعادة كتابة التاريخ عملية تحدث باستمرار في كل زمان ومكان ولكن بشكل فردي وليس بشكل جماعي منظم .

وبما ان كل تاريخ يكتب في حقبة ما او في بلد ما يعكس الى حد كبير روح ذلك العصر او فكر ذلك البلد ، فان تتابع تواريخ متعددة لا ضرر فيه ، اذ يعتبر سجلا للمراحل التي مرت بها الافكار والمشاعر لشعب ما .

التاريخ ليس فوق النزاع والجدل . ولا يسمح للتاريخ بأن يكون محايدا ، بل يجبر على الانخراط في

صفوف كل من الجيوش المتناحرة . يستعمله كل جانب من الجوانب لتعضيد قضيته ودحض حجج خصمه .

وعليه يجب ان نكون جد حذرين من أن نقع في اخطاء التفسير العنصري (العرقي) للتاريخ كما حدث مع النازية والفاشية . ونفس الكلام يصدق على مدارس تاريخيه اخرى كثيرة يجب ان نستفيد منها بحذر . فاعاده كتابه التاريخ بحيث تتلاءم وفترة تاريخية معينه لها مخاطرها وعيوبها واضرارها البعيده المدى . والامثله على ذلك لا حصر لها في التاريخ الاداري بالذات .

ان اعاده كتابه التاريخ بلا ريب يمكن ان تصبح اداة فعاله لخدمة حزب أو فكرة معينة . اذ انها المفتاح الرئيسي والهام لسيطره فكرة ما على قطر أو شعب معين خدمة لهدف محدد .

لكن مثل هذه السياسة الفجة التي تهدف في الحقيقة الى تشويه التاريخ . وليس حبا في تنقيحه . هي محاوله فاشله لانها تحمل بين ثناياها عوامل هدمها وتدميرها .

ولهذا يجب أن نكون متيقظين وحذرين حتى نتجنب تسخير أقلام المؤرخين وتجنيدها في خدمة السياسة الحزبية أو الافكار الضيقة العقيمة . بل يجب أن يكون تركيزنا الاساسي على ابراز الطابع القومي الشمولي والابتعاد عن النزعات القطرية .

ولما كان المؤرخ العربي مطالبا بالعمل . جاهدا على المحافظة على استقلاليته ونزاهته وموضوعيته في كتابة تاريخ الوطن العربي والامة العربية ، فهو في الوقت نفسه له حقوق يجب توفيرها له من قبل هذه الامة وهذا الوطن .

أهم هذه الحقوق وأولها المناخ الديمقراطي السليم الذي تتوفر فيه الحرية الشخصية والحرية الفكرية . لان شيئا من النزاهة والصدق والموضوعية كثيرا ما كلفت المؤرخين الصادقين ثمنا غاليا .

ان الباحث عن الحقيقة . والمؤرخ باحث عن الحقيقة لا شك في هذا ، لا يمكن أن يكون عبدا لنظام حكم أو حاكم أو حزب ، يتلقى تعليماته من موظفين بيروقراطيين ، بل يجب أن يظل صوتا مدويا على منبر الحرية يشارك في بناء صرح أمته والانسانية جمعاء عن طريق البحث عن الحقيقة وتقديمها للجماهير خدمة لمصالحهم وتحقيقا لاهدافهم .

المؤرخ العربي في هذه الآونة بالذات مدعو وبالحاح للقيام بدوره على خير وجه ، وأن يرتفع فوق رواية الاحداث وترديدها مرضاة لهذا الحاكم أو ذاك ، بل هو مطالب بتحليلها وتعليلها وكشف الغث من السمين ، وتقديمها لبني قومه بل وللانسانية كلها .

وبهذا يكون المؤرخ العربي قد وضع الحجر الذي يخصه في الصرح القومي العربي الشامخ الذي يتوق الى تحقيقه كل صغير وكبير من أمتنا ، وبالتالي يسهم كذلك في بناء الصرح الانساني .

هذه الدعوة للمؤرخ العربي تزداد الحاحا في هذه الايام . ايام النكبات بل والسنين العجاف التي أنتجت حكاما مخصيين . اذ تزداد الحاجة الى الفهم والافهام احقاقا للحق وارهاقا للباطل .

وفي الختام أود تقديم المقترحات التالية :

أولا ـ الاهتمام بالانسان الباحث كانسان وليس كموظف مرتزق يجري وراء المادة . فهذا عامل مهم جدا في حفز مورد قدير ونزيه . ونواحي الاهتمام كثيرة لا يتسع المجال هنا لتفصيلها .

ثانيا ـ تيسير مهمة النشر وحصول الباحثين على المنشورات والدراسات اللازمة . فالباحثون في البلاد العربيه بالذات يعانون كثيرا من صعوبات جمة للحصول على مصادرهم الاولية أو اية معلومات تلزمهم في دراسة مسئلة معينه ومحددة . ومن العجب أن نجد المنشورات العلميه الصادره خارج وطننا اكثر غزاره وربما محتوى ايضا من تلك الدراسات التي ترصد وتنشر داخل المنطقة .

ثالثا ـ التنسيق بين الهيئات التاريخية في الوطن العربي حول هذه الفكره في كتابة تاريخ الامة العربيه (لقد نشر في مجلة الدارة / السنة الثالثة ، العدد الاول فبراير ١٩٧٧) عن مشروع مماثل لاعادة كتابة التاريخ الاسلامي . وقد شكلت لجنة خاصة لهذا الغرض منبثقة عن المجلس التاسيسي لرابطة العالم الاسلامي .

كما ان الامانة العامة لاتحاد الجامعات العربية قد شكلت لجنة تحضيرية من كبار المؤرخين مكلفة بدراسة مشروع خاص باعادة كتابة تاريخ العرب والاسلام .

رابعا ـ انشاء صندوق لتمويل هذا الصندوق الذي نحن بصدد دراسته ، ويفضل أن يكون هذا الصندوق مستقلا عن أي نظام سياسي قائم حتى يتمتع بالنزاهة العلمية اللازمة له في تمويل البحوث التي تقدم للمشروع . وان تطالب جميع الهيئات والافراد في الوطن العربي بدعم هذا الصندوق للمحافظة على استقلاليته .

خامسا ـ تكون هيئة علمية للاشراف على الصندوق وعلى المشروع . ويراعى في أعضائها المقدرة العلمية بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى ، وكذلك تأسيس مجلة علمية أو أكثر (حسب الظروف) تكون منبرا تيسر للباحثين نشر بحوثهم . وأن يكون اهتمام هذه المجلة ببحوث تتسم بالصفة الشمولية للوطن العربي وليس الاهتمام الاقليمي العقيم .

سادسا ـ في غياب اتحاد عام للاساتذة الجامعيين في الوطن العربي يجب العمل بكل الوسائل لتقوية اتحاد المؤرخين العرب لرعاية أعضائه اذا ما دعت الحاجة الى ذلك وكثيرا ما تدعو .

د. أحمد حسن جودة

قسم التاريخ بجامعة قاريونس (بنغازي)